• نابليون المنتصر .. والحكومة الضعيفة:

مع تزايد شهرة نابليون كقائد حربي، وتزايد شعبيته داخل فرنسا بعد انتصاراته المتتالية لم يعبأ كثيراً بتعليمات قادته فى باريس حيث بدأ يتصرف كقائد مستقل، وخاصة بعدما ضعفت الحكومة الفرنسية الجديدة وأوشكت على الانهيار، وكان من الممكن لنابليون بعد عودته لباريس منتصراً من إيطاليا أن يزيح تلك الحكومة الضعيفة، ويصير سيد الموقف لكنه كان يخطط لعمل عسكري آخر. وهو القيام بحملة على مصر، ووافقته بالفعل حكومة فرنسا على القيام بتلك الحملة ليس بغرض تحقيق انتصار خارجي لفرنسا فحسب، وإنما لرغبتها كذلك فى إبعاد ذلك القائد العسكري الشجاع الطموح عنها، فيظل أعضاء الحكومة والسلطة بعيداً عن منافسته لهم فى الاستحواذ على السلطة، وحكم البلاد.

• لماذا فكّر نابليون فى الاتجاه إلى مصر؟

إن هناك فى الحقيقة أكثر من سبب وراء هذه الحملة..

obeikandl.com

• **سبب عسكري:**

بعد توقيع معاهدة "كامبو فورميو" بقى أمام نابليون عدو واحد طالما تربص بفرنسا، وحاول نشر الفتن والاضطرابات على أرضها بعد الثورة وهو إنجلترا. لكن إنجلترا لم تكن أبداً بالعدو السهل، فقد كانت أكبر قوة بحرية حيث امتلكت أسطولاً بحرياً منيعاً سيطر على حركة الملاحة بالبحر المتوسط، وعلى الممر التجاري إلى آسيا.. التى كانت تمثل للتجار من دول أوربا أهمية كبيرة حيث كانوا يجلبون من بلادهم، وبخاصة من الصين والهند البضائع المختلفة المميزة التى لاقت رواجاً فى أوربا كالتوابل المختلفة، والحرير، والبضائع النادرة النفيسة التى تميزت بها دول آسيا. لقد وجد نابليون أن مهاجمة الجزر البريطانية من خلال بحر المانش أمراً مستعصياً، وخاصة أن القوات البحرية الفرنسية كانت ضعيفة ينقصها كثير من التجهيزات التى تحتاج وقتاً طويلاً.. وذلك على الرغم من امتلاك نابليون لأكبر قوة عسكرية على الأرض، فأدرك نابليون أن تسيير حملة على مصر سوف يضطرها لإعادة توزيع قواتها البحرية بحيث تتحرك تجاه البحر المتوسط بينما تعود قواته إلى بحر المانش، وتنقض على الشواطئ الإنجليزية. كما وجد نابليون أن غزو مصر بالتحديد والتى تميزت بموقع استراتيجي بارز سوف يمكّن فرنسا من منافسة القوات الإنجليزية فى السيطرة على الملاحة فى البحر المتوسط، والحد من نفوذها على المجرى الملاحي إلى آسيا.

• **الولع الفرنسي بالشرق ومصر:**

لكن فى الحقيقة أن ذلك السبب الحربي العسكري لم يكن هو السبب الوحيد حيث إن نابليون منذ حداثة سنه كان شغوفاً بالكشف عن أسرار عالم الشرق، وخاصة أرض مصرمهد الحضارة العريقة. لذلك فإن الحملة التى قادها نابليون ضمت عدداً من العلماء والفنانين، والباحثين كالأثريين، والكيميائيين، والمهندسين، والرياضيين بغرض دراسة واستكشاف مصر أرض الفراعنة ذات الحضارة العريقة. ودراسة فنون وعادات، وديانات أهل الشرق. ذلك بالإضافة لوجود مجموعة من أبرز القادة العسكريين مثل: كليبر، وديزيه، ومارمون، وغيرهم.

• **حال المصريين:**

كانت مصر فى تلك الفترة تابعة للإمبراطورية العثمانية لكنها كانت من الناحية الفعلية تحت حكم المماليك الذين تميزوا بالقسوة، والبطش، وأذاقوا المصريين العذاب، ومُر العيش.ولكن على الرغم من ذلك لم يرحب المصريون بقدوم تلك الحملة الغربية إلى بلادهم، واستمروا فى مقاومتها بشراسة خاصة بعدما ارتكبت العديد من الجرائم فى حقهم، وفى حق ديانتهم الإسلامية، كما سنعرف.

• **بداية الحملة:**

خرجت الحملة من ميناء "طولون" فى 19 مايو سنة 1798م.

واشتملت على 400 سفينة، وبارجة، وناقلة حربية فى اتجاهها إلى مصر، وكان نابليون يعلم بوجود البحّار الإنجليزي الماهر "نيلسون" الذى لُقب بأمير البحر رابضاً بأسطوله فى البحر المتوسط، ورغم ذلك تجرأ نابليون على مهاجمة مالطا، ولم يجد صعوبة فى ذلك لأن البارجة التى تصدت له هناك كانت تحمل مجموعة من الجبناء الذين فروا هاربين، واتجه الأسطول إلى سواحل الإسكندرية ليصلها فى أول يوم من شهر يوليو، وقد خدمت الأحوال نابليون فى رحلته كما حالفه الحظ، فبعدما علم نيلسون بقدوم الحملة بادر على استعجال فى الاتجاه إلى الإسكندرية فى انتظارها فلم يجدها، فترك الإسكندرية بحثاً عنها .. فقد غير نابليون الماكر اتجاه الحملة حيث اتجه بها إلى جزيرة كريت ليتفادى لقاء نيلسون فى البحر، ولولا ذلك التأخير فى وصول نابليون إلى الإسكندرية، ولولا تلك العجلة من جانب نيلسون لتلاقى الطرفان فى موقعة بحرية عظيمة كانت ستسفر بلا شك عن هزيمة الفرنسيين هزيمة نكراء.

• وصول الحملة إلى مصر.. نابليون فى الإسكندرية:

وصلت الحملة إلى الإسكندرية، وكانت وقتئذ بمثابة قرية كبيرة تضم عدة آلاف من السكان، وغير محصنة تحصيناً جيداً، وتقدم نابليون أسطوله على متن سفينته التى حملت اسم

"الشروق"، وكان قدوم الحملة غير مبرر لأهل الإسكندرية، فتساءل البعض: لماذا يجيء الفرنسيون إلى هنا؟!

ليس لديهم ما يفعلونه؟. لقد كان نابليون يعرف جيداً مدى تمسك المصريين بعقيدتهم الإسلامية، وبتعاليم دينهم الحنيف، وقد وضع هذه النقطة فى الحسبان عند قدومه إلى مصر، وحاول استغلالها لإرضاء المصريين، وتذكر فى قرارة نفسه كيف استطاع الإسكندر الأكبر من قبله نيل رضاء المصريين القدماء؟ بزيارته لمعبد آمون، وإظهار احترامه لعقيدة المصريين القدماء.

• خطاب نابليون إلى أهل الإسكندرية:

لذلك عندما وصل إلى الإسكندرية أعلن فى خطاب ألقاه نيته الخالصة فى احترام عقيدة المسلمين، وأنه جاء إلى البلاد رغبةً منه فى تخليص أهلها من ظلم المماليك حاملاً إلى البلاد مبادئ الحرية، والعدالة التى أرستها الثورة الفرنسية، وهذا جزء من الخطاب الخادع الذى سار نابليون فى الحقيقة على غير مضمونه:

" بسم الله الرحمن الرحيم لاإله إلا الله لا ولد له، ولا شريك له فى ملكه، من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية، والتسوية، السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرتيه يعرف أهالي مصر جميعهم أن من زمان

مديد الصناجق الذين يتسلطون فى البلاد يتعاملون بالذل، والاحتقار فى حق المِلّة الفرنساوية، ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي..هذه الزمرة من المماليك المجلوبين من بلاد الأباظة[1] والجراكسة (أى القوقاز، وجورجيا) يفسدون فى الإقليم الحسن الأحسن الذى لا يوجد فى كرة الأرض كلها، فأما رب العالمين القادر على كل شيء فإنه قد حكم على انقضاء دولتهم. يا أيها المصريون، قد قيل لكم إننى ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح لا تصدقوه، وقولوا للمفترين إننى ما قَدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين، وإننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى، وأحترم نبيه، والقرآن العظيم..قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضًا مسلمون مخلصون، وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا فى رومية الكبرى(مدينة روما). وضربوا فيها كرسي البابا الذى كان دائمًا يحض النصارى على محاربة الإسلام".

- **تأثير الخطاب:**

لكن ذلك الخطاب فى الحقيقة لم يقنع المصريين كثيرًا بتلك الأغراض السامية التى جاء نابليون إلى مصر على أساسها. وقد وصف "الجبرتي" ذلك الخطاب بأنه خطاب ركيك ضعيف اللغة يحمل شيئًا من التناقض،

(1) الأباظة: المقصود به إقليم إبخاريا المطل على البحر الأسود والذي استعاد استقلاله وانفصل عن (جورجيا) ومعظم سكانه من المسلمين (الناشر).

واستمر نابليون فى بداية قدومه إلى مصر على نفس هذا النحو المسترضي للمصريين، والمبجل لعقيدتهم.. فقد كان يجلس فى الجامع الأزهر وسط العلماء يستمع لخطبهم الدينية، وتفسيرهم لكتاب الله عز وجل، مظهرًا إجلاله لرسالة النبي العظيم محمد ﷺ.

• حركة المقاومة الشعبية بقيادة السيد/ محمد كُريم:

لقد بدأت المقاومة الشعبية ضد الفرنسيين منذ بداية قدومهم تحت قيادة السيد/محمدكُريم الذى كان حاكمًا للإسكندرية، فقام الأهالى بتحصين أسوار المدينة، وتزويد القلاع بالأسلحة والذخائر، ووضع المدافع فى مواجهة السفن الفرنسية، لكن كل تلك الطرق الدفاعية كانت غير فعالة أمام التسليح القوي للحملة الفرنسية، ولم تهدأ المقاومة الشعبية ضد الفرنسيين خاصة بعدما بدأت تتكشف نواياهم الحقيقية الاستعمارية، وقاموا بإثارة الفتن، وتحريض الأقليات المسيحية، واليهودية ضد المسلمين، وفرضوا سيطرتهم على المدينة، كما فرضوا ضرائب باهظة على السكان لتدعيم حملتهم، وأصبح "كليبر" قائدًا عامًا للمدينة.ولم تهدأ عمليات المقاومة والمناوشات من جانب السكندريين، واتهم السيد/ محمد كُريم بضلوعه فى تلك العمليات المضادة للفرنسيين، ونُقل من المدينة إلى رشيد، ثم إلى القاهرة حيث أُعدم هناك.

• موقعة أبي قير البحرية :

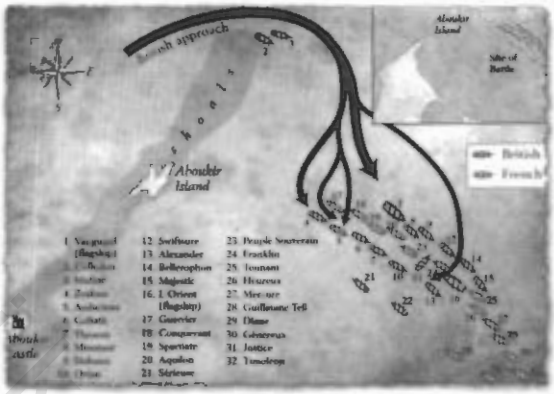

شكل يوضح اتجاه أسطول نيلسون تجاه السفن الفرنسية بالقرب من جزيرة أبى قير والفتك بها..ويوضح الشكل أسماء السفن، والقطع البحرية، والتى بلغ عددها 32 .

استمر نيلسون فى البحث عن نابليون وسفنه حتى استطاع العثور عليها راسية بالقرب من منطقة أبى قير، وهناك جرت مجزرة دامية وهزيمة نكراء للفرنسيين فى أول أيام شهر أغسطس من سنة 1798م حيث استطاع تدمير أغلب سفن نابليون، وتسبب ذلك من ناحية أخرى فى إتلاف، وضياع الكثير من الأجهزة العلمية من مجاهر وأدوات معملية، ومراجع علمية كانت قد جاءت بها الحملة، وخسر نابليون فى تلك المعركة نحو1700بحار بالإضافة لعدد مماثل تقريبًا من المصابين، ولم يتبق له سوى عدد محدود من السفن والقطع الحربية، فأدرك نابليون أن

استمرار حملته صار أمرًا عسيرًا، وأن عليه بذل المزيد من الجهد وخوض تجارب لم تكن متوقعة، وإلا سوف يضطر للعودة إلى بلاده خاسرًا، وهو ما لم يكن يرضاه أبدًا.

لوحة فنية تصور مشهدًا من موقعة أبى قير الشرسة بين الفرنسيين والانجليز.

• استمرار المقاومة ضد الحملة فى دمنهور، وشبراخيت:

اتخذت حملة نابليون طريقها إلى القاهرة.. وعلى الطريق دخلت مدينة دمنهور ولاقت هناك مقاومة شديدة من أهلها، وقام البدو بإخفاء آبار المياه لحرمان الجنود من الماء وتعطيشهم، كما قام الحاكم المملوكي "مراد بك" بحشد الفلاحين، وفرسان المماليك لمقاومة الغزاة، ونجحت حركة المقاومة فى تدمير سفينتين فرنسيتين فى النيل بالقرب من شبرا خيت، وتمكن الفرنسيون بصعوبة من الإفلات من مقاومة الأهالي، واستمروا فى طريقهم نحو القاهرة.

• **موقعة الأهرامات:**

وصلت أنباء إلى القاهرة عن تقدم الحملة الفرنسية نحو تلك المدينة العريقة. فاستعد أهلها لمواجهتها .أما المماليك فكان حرصهم متركزًا على إخفاء نفائسهم، وثرواتهم حتى لا تقع فى أيدى الفرنسيين.لقد كان الفرنسيون يعرفون جيدًا مدى شراسة المماليك فى المعارك الذين اشتهروا فيها بمهارتهم فى استخدام السيوف حتى قيل إن ضربة واحدة بسيف مملوكي تقسم جسم العدو إلى نصفين، ولكن فى الحقيقة أنهم افتقدوا للتنظيم الكافي والأسلحة الحديثة على عكس الفرنسيين، فكانت ضرباتهم طائشة غير مؤثرة إلى حد كبير. وفى صيف 1798م التقى جيش المماليك، وعدد كبير من الأهالي مع الجيش الفرنسي فى مواجهة ساخنة بين الطرفين بالقرب من منطقة الأهرامات. فى تلك المعركة التى اكتسبت اسم "موقعة الأهرامات" كانت خسائر المماليك فيها فادحة، وقُتل عدد كبير من فرسانهم فلم يستطيعوا الصمود أمام الجيش الفرنسي المنظم والمزود بأحدث الأسلحة والذخائر.

لوحة فنية تصور مشهدًا من المعركة الحامية التى دارت بين المماليك، والقوات الفرنسية عند منطقة الأهرامات.

• أين ذهب أنف أبي الهول؟

لقد اشتهرت تلك الموقعة بأنها كانت السبب فى الإطاحة بأنف أبي الهول، وربما كان ذلك لإصابته بقذيفة فرنسية طائشة، ولكن فى الحقيقة أن بعض المؤرخين لا يوافقون ذلك الرأى حيث يعتقدون أن تلك المعركة دارت فى منطقة إمبابة بالقاهرة التى تقع على مسافة بعيدة إلى حد ما من منطقة الأهرامات، لذا فإنهم يعتقدون أن هناك أسبابًا أخرى وراء فقد أنف أبي الهول، وأبرزها تعرضه للتآكل بفعل عوامل البيئة.. ومن المعتقد كذلك إصابته بقذيفة عثمانية فى فترة سابقة.

لوحة فنية تصور ثلاثة جنود فرنسيين يتأملون تمثال أبي الهول بإعجاب..
الذى فقد أنفه لسبب غيرمعروف بشكل مؤكد.